كلمة الدكتور عبد الإله نبهان عضو المجمع في حفل استقبال الدكتور محمد طيب تيزيني

سيدي الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية الموقّر
سادتي الأفاضل أعضاء مجمع اللغة العربية الموقّرين
سيداتي سادتي:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

يسعدني اليوم أيّما سعادة أن يناط بي الترحيبُ بأخي الأستاذ الدكتور محمد طيب تيزيني في حفل استقباله عضوًا عاملًا في مجمع اللغة العربية بدمشق بعد أن مضى على ترشيحه لهذه العضوية نحوٌ من ثماني سنوات.

والدكتور الطيب من أساتذة الفلسفة البارزين ومن رجال الفكر المعدودين ومن المنتجين الكبار للكتب الجادة الرصينة والدراسات والبحوث المعمقة.

أأحدثكم عن الطيب؟ ولكن كيف أبدأ الحديث وعن أي شيء؟

أأحدثكم عن أُخُوّة وصداقة تجاوزت بصفائها نحوًا من أربعين عامًا ونيِّف، استمرّت بالحب والوفاق، لم يخالط صفوها كدر، ولم ينغّص سعادتها خلاف، إنما صداقة ومرافقة وموافقة، كانت الأحلى والأجمل والأنضر في بادية الحياة ... أأحدّثكم عن أفكاره وعن كتبه؟ ومَنْ لي بالمقدرة على إيجاز آلاف الصفحات - بلا مبالغة - في دقائق محسوبةٍ معدودة؟

في عام ١٩٦٩ في غرفة صغيرة، مكتظة بالكتب، غرفةٍ لا يسكنها إلا طالب أو كادح، غرفةِ مِرآب، كان لقائي الأولُ بالدكتور التيزيني، وكنت صحبة الأخ الصديق الدكتور عبد المعطي سويد، وكان الطيب قد قَدِم حديثًا من ألمانيا. وتنامت المعرفة وتحوَّلت إلى معرفة وثيقة وصداقة فكرية مديدة، لذلك فإنني أزعم أنه يمكنني أن أوجز لكم سيرة نضال عصاميةً فكرية فيما خُصِّص لي من دقائق.

ولد السيد الدكتور محمد طيب تيزيني في حمص القديمة في «جمال الدين» بباب الدريب عام ١٩٣٦ في العاشر من حَزِيران، وقرأ القرآن وتعلّم الحساب في كتّاب الشيخ عبد السلام، هذا الشيخ الذي كان له تأثير كامن في وعي التلميذ.

كان الشيخ عبد السلام هذا كادحًا فقيرًا، يعلّم الأولاد، ويؤذّن في المسجد، ويصلّي إمامًا، وكان في الوقت نفسه عاملًا أجيرًا لدى بعض تجار النسيج الذين أَثْرَوا على نحوٍ مذهل... وقد وعى الدكتور الطيب دلالة هذا الوضع المأساوي في سنوات تالية، واتّضح له أن الدين ليس هو الذي يفسّر الوضع الاجتماعي، وإنما هذا الأخير هو الذي يقدّم مسوّغات الدين... ومات الشيخ عبد السلام، وقد ترك في ذهن الفتى وقلبه دروسًا وذكرياتٍ لا تُمحى، وقال عنه بعد ذلك: لقد تجاوز بؤسَه وفقرَه بعزائه الديني، عزاء السعادة القصوى في جنات النعيم.

بعد مرحلة الكتّاب، تنقّل الطيب في المدارس حتى نال درجة الشهادة المتوسطة (الكفاءة)، وقضى وقتًا بعيدًا عن الاستقرار المادي والمدرسي، وبادر إلى الالتحاق بخدمة العلم التي أنهاها ونال خلالها الشهادة الثانوية العامة. وكان مما أثّر في تكوّنه بيت أهله في «جمال الدين» وكان فيه غرفة

واسعة يسمّونها «المنزول» يسهر فيها زوّار دائمون من مختلف المشارب. في هذه اللقاءات الأسبوعية كانت هناك مجادلات فكرية ودينية، كان فيها ما جذبه إليها، وكان فيها ما نفّره منها، واستأثرت مشكلة الجبر والتخيير على حَيِّزٍ من تلك الحوارات، وبتأثير من هذا الجو الثقافي اندفع الطيب إلى العناية بالفكر الفلسفي، فقرأ المعرّي وتعرّف فكره العقليّ المستنير وموقفه من العالم، ثم قرأ تولستوي وجان جاك روسو في اعترافاتهما التي تجعل الموت الخيار الأمثل أمام الإنسان، وتعرّف بابن خلدون وديكارت وماركس... وبدأت رحلة العلم والتحصيل الطويلة، إلى جامعة دمشق أولًا، ولمدة سنة واحدة في فرع الثقافة العامة حيث شعر بضحالة التجربة وعُقْمها، فتوجّه إلى أوربا في رحلة شاقّة ممتعة انتهت بالاستقرار في ألمانيا الديمقراطية، وهناك في لايبرغ وبرلين قرأ ما استطاع قراءته من الموروث الفلسفي اليوناني والإنكليزي والفرنسي والألماني وأنجز شهادتي الماجستير والدكتوراه.. وقد لاحظ في أثناء دراسته غياب الدراسات عن تاريخ الفكر العربي في العصر الوسيط والحديث على نحوٍ موسّع معمّق في معاهد الفلسفة هناك.. ولم يكن ذلك قصورًا بقدر ما كان وضعًا تاريخيًا تمتد جذوره إلى مرحلة قديمة.

عاد التيزيني إلى سورية عام ١٩٦٨، وهو يطمح إلى العمل في التدريس الجامعي في قسم الفلسفة، ولم يكن طريقه إلى الجامعة مفروشًا بالورد والريحان، لقد خاض صراعًا، وعانى من البيروقراطية، ولم يستقرّ وضعه إلا بعد هياطٍ ومياط، وشفاعة من نزاهته وأمانته وصلابته وحرصه المطلق على حرية الفكر واحترام الإنسان.

فليس الذي قاسى المطالب غدوةً هبيدًا، كمن قاسى المطالب حنظلا

وفي هذه المرحلة جاءته فرصة لمتابعة التحصيل العلمي، وكان ذلك

مناسبة لإنجاز أطروحة جديدة نال عليها شهادة «الأستاذية»، وقد كلفه ذلك خمس سنوات من العمل.

وفي جامعة دمشق اتجه إلى العمل على مشروع فكري واسع الآفاق إضافةً إلى عمله التدريسي، وبدأ مشروعه بكتاب أفصح فيه عن آفاقه الفكرية وسمّاه «مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط»، وهو كتاب تضمّن الأسس التي سيبني عليها كتبه اللاحقة، وأولها كتاب «من التراث إلى الثورة: حول نظرية مقترحة في قضية التراث العربي»، وهو كتاب ضخم، في حجمه الورقي، وفي حجمه الفكري، ومما أخبرني به السيد الدكتور أنه سيسميه إذا أعاد نشره: من التراث إلى النهضة. وتوالت كتبه تترى بعد ذلك، وسأُلْحق أسماء مؤلفاته في ثبت في نهاية هذه الكلمة.

وانطلاقًا من دمشق اتسع نشاطه سطحًا وعمقًا، أما من حيث السطح فقد كان ذلك في مجال المحاضرات الفكرية لعموم الناس والمثقفين، في المراكز الثقافية، والجمعيات الثقافية، وفي منظمة الشبيبة، وكان يُجيب جميع الدعوات، سواء أكان ذلك في المركز أم في الأطراف، أما عمقًا فإن ذلك كان في مجال تطوير أفكاره وإنمائها وتسجيلها في كتب ومقالات، سرعان ما وجدت طريقها إلى أيدي الباحثين وأفكارهم... لقد أخذ على عاتقه مَهمَّة نشر الوعي من منظور تنويري وعلى كل صعيد، واستهدف في بحوثه دائمًا تجسيد قانون العلاقة الجدلية بين الفكر والواقع منطلقًا من رؤية استشرافية تقوم على قناعة عقلية قوامها أن قضية التراث والنهضة كانت وما زالت هي القضية التي يمكن للمفكر أن يلج منها إلى الإشكالية الثقافية النظرية في الوضعية العربية الراهنة لتكون النتائج سلاحًا فكريًّا دقيقًا مرهفًا في وطنٍ يريد له الآخرون أن يُحتضر.

ويعتمد الدكتور في بحوثه منهجًا واضحًا مُعْلَنًا، هو المنهج المادي

الجدلي التاريخي، وذلك لأنه يرى أن هذا المنهج إذا جُرّد من معظم معطياته ومقوماته، فإنه يظلّ محتفظًا بركيزته الكبرى الحاسمة المتمثّلة بكونه منهج التجاوز والتخطّي الجدليين الماديين، وبأنه - أي هذا المنهجَ - هو أولُ خاضع لهذا التخطّي وذلك التجاوز.

ولا يسعني في هذا المقام الاستطرادُ في عرض أفكار الدكتور التيزيني، وحسبنا من النَهْر مصّةُ الوشَل، وخصوصًا أن المقامَ مقامُ استقبال لا مقامُ تعريف أو تعليم، والرجل تُعرِّف به آثاره لمن أراد أن يعرف.

سادتي أعضاء المجمع الكرام

سيداتي سادتي:

إننا إذ نلتقي اليوم في جلسة الاستقبال هذي لاستقبال الرصيف الكريم إنما نستقبل باستقباله ابنًا وطنيًّا بارًّا، ومفكرًا عربيًّا بارزًا، فرض اسمَه على ساحة الفكر العربي المعاصر، وعلى التاريخ الفكري المعاصر.

ولا نملك إلا أن نُشيدَ بتواضعه الجمّ وشدة احترامه لإنسانية الإنسان، وديموقراطيته، وحبّه لوطنه وتعلقِه به، وتفانيه في سبيل أمته، وبزهده في تلك الأعراض الفانية من مالٍ ومن نسب... وكلّ هذه السمات نتلمسها في سلوكه وفي دراساته، فهو لا ينسى دائمًا أن يقدّم الشكر لخصومه الفكريين مع الاحترام، منطلقًا من مقولته التي كان وما يزال يرددها دائبًا: «إن الديموقراطية يجب أن تكون في حياتنا المقدمةَ والمتنَ والخاتمةَ»، وكأنّ الشاعر العربيّ القديم قد عناه عندما قال:

إذا أحسن الأقوام أن يتطاولوا ... بلا نعمةٍ، أحسنت أن تتطولا

تعظّمتَ عن ذاك التعظّم منهمُ ... وأوصاك نُبل القدر ألّا تَنَبَّلا

تبيت بعيدًا أن توجّه حيلةً ... على نشب السلطان أو تتأوّلا

والسلام عليكم